بصّاره برّاجه بتشوف البخت !

حكاية

بقلم فؤاد افرام البستاني

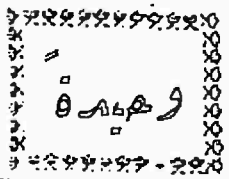

كانت لوالديها ، تطلب العزيز الممتنع فتراه بين يديها . شبّت منعمة تتنقّل من مهد الترفّه الى حضن الدلال ؛ لا ترى الا الابتسام ، ولا تسمع الّا « يا عيني ، ويا روحي » . كان ابوها شيخ القرية وأمها شيختها ، يفصلان في شؤون الرجال ومنازعات النساء ، وما فيهم من يحتجّ ، ولا فيهنّ من تتذمّر . وسلمى تخطر في هذا المحيط يحفّها والداها بالعناية ، وينظر اليها الجميع بعين الاعجاب والاكرام ، فيتراءى لها التسلّط من طبيعتها ، وتخال الحياة ماهاة جميلة ...

ولم يكن لها ما يصرفها الى شغل عقلي ؛ لان أباها ، وهو من « المحافظين على التقاليد الصالحة » ، أبى ان يعرّضها لمفاسد العصر ، فلم يعلّمها الّا المبادئ الاولية ، مستعيذاً بالله من مضارّ القراءة بالنساء ، وشرور الكتابة ! فمالت الفتاة الى التأمل بما كانت تسمع من اقاصيص العجائز ، واخبار بنات القرية ، فتتوسّع فيها ، وتعلّق عليها ، وتجترّها طولَ تلك الايام المتتابعة على وتيرة واحدة ، فترمي بانظارها الى ما وراء المنزل ، الى مكان ولّدته مخيّلتها البليدة ، الى عيشة تكون لحمتها الملذّات ، وسداها قلّة العمل .

هكذا كانت تتغذّى تلك الافكار ، وتتعزّى بها . تسمع باحاديث الخطب والأعراس ، فتتمنى ان يكون لها عريس ، لا عن حبّ او ميل ، بل ليقول رفيقاتها : « خُطبت سلمى . وغداً عرس سلمى . ورأينا عريس سلمى . » الى آخر ما هنالك مما حشت به دماغها المضطرب ، المتقلقلة فيه اسماء الاقمشة والفساتين ، والقاب الطيوب والمساحيق .

ولم تكن سلمى دميمة الخَلق ، كريهة المنظر ، فتنبو عنها العين ، وتنفر منها النفس ؛ بل كانت على قسطٍ من الجمال وضاءة الجبين ، دعجاء العينين

تُرسل منها نظرات الآمرة المتكبرة . غير ان مواهبها الخُلقية لم تكن على شيء من حسنها الخارجي ، فكانت ، مع بساطة قلبها ، ضعيفة الارادة ، كثيرة التقلب ، مدّعية بانواع المعرفة ... فكان من يسمعها لاول وهلة يميل عنها ؛ ومن يعرفها يشفق عليها ، ويلوم اباها « المحافظ على التقاليد الصالحة » ...

* * *

قضت سلمى السنين من حياتها بين تزيُّن وتبرُّج واستحمام ، تنام النهار وتسامر القمر ، الى ان ضجرت من انتظار العريس ، فاخذ التشاؤم المؤلم يدبّ في اعماق نفسها ، ويدنو من افكارها شيئاً فشيئاً .

وبينما هي في عصر احد الاعياد ، منطرحة على كرسي هزّاز في بهو المنزل ، اذ طرق سمعها صوت « نورية » تنادي :

بعّاره برّاجه بتشوف البخت !

فبرقت اساريرها وصاحت :

— تعالي ! تعالي !

دخلت النورية ، فحطّت بضاعتها . ثم فتحت جرابها ، وبعد ان اجالت فيه يدها مرّات ، اخرجت اصدافها ، قلبتها ، وقالت :

— الاسم الكريم ؟

— سلمى .

— تعيشين باسمك ، يا سلمى . تفضلي وضعي يدك هنا .

فوضعت سلمى يدها بعجب . اما النورية فجمعت اصدافها ، ورمتها ثانية . وقالت :

— انت حسناء بين زينات العرب ، يا سلمى . مستقبلك احسن من حاضرك ، يا سلمى . بعض الناس يحبّونك ، والبعض يبغضونك ، يا سلمى . امامك سفرة طويلة تتوفّقين فيها ... سيأتيك مكتوب سارّ قريباً ، ان شاء الله ! ...

ثم سكتت النورية ، فقلقت سلمى وتمتمت :

— حسن . ولكن ... لم تقولي شيئاً ...

فابتسمت النورية ، واجالت اصدافها ثالثةً ، وقالت :

— اني ارى شاباً فكره فيك . وسيحصل نصيبٌ عن قريب ... قولي معي : ان شاء الله ! . . .

فقالت سلمى : ان شاء الله ! ثم حذفت النوريةَ بما تيسّر لها من النقود ، ودخلت غرفتها فرحةً مبتهجةً .

***

في الطبيعة البشرية ميل الى الاعتقاد ، ولو بلا شيء . فالانسان ، اذا لم يعتقد بالحقائق الراهنة ، اعتقد بالترهات والخرافات الباطلة . وهكذا فان سلمى أخذت باقوال النورية ، فاصبحت تعدّ الايام والليالي مترقبة وصول العريس ، منتظرة من ساعة يقظتها الى ساعة نومها على شرفة المنزل ، مردّدة بايمان حارّ قول النورية : ان شاء الله ! ان شاء الله ! . . .

وحدث ان عاد ابوها ، ذات مساء ، وبصحبته شاب من معارفه كان قد رجع حديثاً من اميركة ، ورجع « موفقاً » . فلم تشكّ سلمى بانه العريس المعهود ، فاخذت بلاطفته مظهرة امامه كل ما حفظته في حياتها الماضية من التصنّع ، وكل ما اتقنته من الانفعالات . حتى خُدع الرجل بجمالها الخارجي وبحركاتها التمثيلية ، فعدّد الزيارات ، وعدّدت المظاهرات . وانتهى بأن خطبها الى والديها . وبعد ايام قلائل اقيمت حفلة العرس ، فشمل الفرح الجميع ، وتحدّث بالخبر كلّ نساء القرية . . .

***

مضى على زواج سلمى سنتان ، ولم تُرزق ولداً . فحزنت نفسها ، واخذت بتناسي ملذّات العرس لتحوّل افكارها الى نقطة واحدة هي الحصول على ولد مهما كلفها الامر . ولم يكن دافعها الى ذلك حبّ الامومة او رغبة التربية بل ميلها الفطري الى الظهور والتمثيل ، فكانت ترد ان تكون اماً ، لتلقّبها الجارات « بأمّ فلان » ، ويقلنّ لها : « فرحة عريسك ! » فشغلت ذهنها الليل والنهار ، مستمدّة النصائح من العجائز الكثيرات اللواتي يترقّبن هذه الظروف لتبرّعن بآرائهنّ . اخيراً ، افتكرت بزيارة اطباء بيروت ، واستمدّت لاطلاع زوجها